

جواسيس العصر الحديث

نابليون بوناپرت وإمبراطور الجواسيس



من فرط اهتمام نابليون بوناپرت بالجاسوسية ، واعترافه بفضلها في كسب المعارك الحربية ، أنه قال إن جاسوسا واحدا في المكان المناسب ، يساوي ٢٠٠٠٠ مقاتل في الميدان . وهو الذي اكتشف مواهب «كارل شولميستر» الذي كان يعمل مهربا ، فعينه قومسييرا عاما لجيوش الإمبراطورية الفرنسية في الميدان ، لبراعته في أعمال المخابرات ، وإسهامه العظيم في نجاح العمليات العسكرية ، وأطلق عليه لقب «إمبراطور الجواسيس» .

قامت الحرب بين النمسا وفرنسا . وكانت قوات الإمبراطور الفرنسي «نابليون» ترابط على طول نهر «الراين» ، تتأهب للهجوم . وفي النمسا كانت حامية عسكرية قوية تحمي قلعة «آلم» الاستراتيجية ، التي تحرس الطريق إلى «فيينا» عاصمة النمسا .



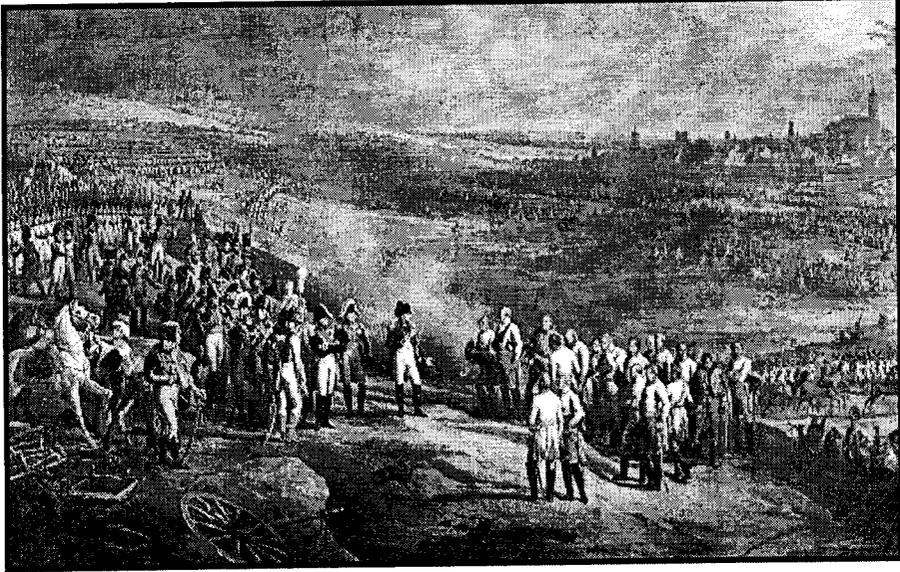
نابليون

في أواخر عام ١٨٠٤ حضر إلى «فيينا» نبيل مجرى شاب ، وسيم ، أنيق . اتسم باللباقة والكياسة ، وسرعان ما فاز بتعاطف وحب المجتمع الفييني ، بسبب قصته الحزينة ، ذلك لأن نابليون طرده من فرنسا ، وفقد كل شيء . لذلك شعر كثيرون بأن الشاب المجرى ربما يكون مفيدا لأزمة النمسا ، خصوصا وأن لديه معلومات جيدة عن الدولة الفرنسية ، وقواتها المسلحة . وهؤلاء نظموا له لقاء مع «المارشال ماك» قائد جيش النمسا ، وقدموه له .

أعجب «ماك» بعمق إدراك الشاب النبيل للموقف العسكري أيما إعجاب . فضمه إلى هيئة أركان حربه ، وجعله رئيسا للمخابرات ، المنصب الذي لم يحلم به الشاب ، لأنه لم يكن سوى «كارل شولميستر» ، كبير جواسيس نابليون ، المدسوس على النمسا .

انطلق «شوليمستر» يعمل في الحال ، مغذيا القائد النمساوي بمعلومات مزيفة . ادعى أنه عرف من مصادر موثوقة أن الجيش الفرنسي في حالة انهيار ، وقدم - إثباتا لذلك - خطابات مزورة زعم أنها من ضباط في وحدات فرنسية متمردة . ورشا اثنين من ضباط الأركان : «وينديت» و «رولسكى» ، أوغر إليهما أن يسما «المارشال ماك» قصصا مشابهة . ومن ناحية أخرى نشر نابليون في صحف خاصة بفرنسا أخبارا تبدو وكأنها تؤكد روايات «شوليمستر» وصاحبيه .

صدق «ماك» أن القوات الفرنسية المتمردة تتقهقر خلف خط نهر «الراين» ، ففقد قوة من ٣٠٠٠٠ رجل . خرج بهم من قلعة «أولم» الحيوية ، على أمل مباعثة جيش نابليون المنهار . وكانت تلك هي الفرصة التي ينتظرها المارشال «ناي» الفرنسي ، ضرب ضربته من الأمام . وحوصر الجيش النمساوي : قوات الجنرال «سولت» والجنرال «دويونت» من جهة ، وقوات الجنرال «مارمونت» والجنرال «لانس» من جهة أخرى . وكان على «ماك» أن ينسحب ، لكنه وجد قوات الجنرال «مورات» تسد عليه خط الرجعة ، فاضطر إلى الاستسلام ، وانتهت المعركة بنصر حاسم لفرنسا بدون إراقة دماء ، وبعد أقل من شهر دخل الفرنسيون «فيينا» واحتلوها لأول مرة في التاريخ . واعتبر المارشال «ماك» خائنا فسجنوه إلى أن أعلن موقف «شوليمستر»



استسلام الجيش النمساوي

كانت تلك أعظم عمليات إمبراطور الجواسيس «شولمستر» ، ولم تكن الوحيدة ، فقد تورط في عملية خطف واغتيال شاب من أعضاء الأسرة المالكة السابقة ، وفيما بعد عمل جاسوسا لنابليون في إنجلترا وفي فرنسا ذاتها . وكان نابليون يجزل له العطاء مقابل خدماته ، فأصبح مالكا لمزرعتين عظيمتين يفاخر بهما . أعرب لخلصائه دائماً عن أمله في أن يمنحه «نابليون» وساما . وكان الحصول على وسام جوقة الشرف الفرنسية هو أعز أمانيه . لكن نابليون كان حازما في تلك النقطة ، فقد قال في ذلك : «الذهب هو المكافأة المناسبة للوحيدة للجواسيس» .

فقد «شولمستر» نصف ثروته حينما خسر «نابليون» معركة «واترلو» عام ١٨١٥ ، وفقد النصف الآخر في الأسهم والسندات المالية وتجارة الماشية وتوفي إمبراطور جواسيس نابليون عام ١٨٥٣ فقيراً معدماً ، لا يملك سوى كسك طباق في أحد شوارع مدينة «ستراسبورج» .

★ مخبرات آل روتشيلد

يعتبر بيت «روتشيلد» اليهودى في لندن أول جهاز مخبرات اقتصادية مدنى خاص ، يعمل لصالح أصحاب رؤوس الأموال ، وقد استفاد آل روتشيلد كثيرا من جمع المعلومات فى تنمية أموال مصرفهم عام ١٨١٥ ، كما أفادوا المتعاملين معهم ، وحققوا أهدافا استثمارية ضخمة . وكانوا يحصلون على المعلومات الهامة ذات العلاقة بأسواق المال ، قبل أن تحصل عليها الحكومات .

من ذلك مثلا أن أوروبا كلها كانت تتربح نتيجة معركة «واترلو» . وعرف «ناتان روتشيلد» فى لندن أن الإنجليز كسبوا الحرب ضد نابليون ، فأغرق سوق المال بسندات على حكومة بريطانيا ، وعرضها للبيع . وقلده كل من كانوا يرقبون تحركاته معتقدين أن الإنجليز خسروا المعركة ، فهبطت الأسعار . وفى اللحظة المناسبة اشترى «روتشيلد» كل ما فى سوق المال من سندات بأسعار منخفضة ، فلما انتشر خبر انتصار بريطانيا ، ارتفعت أسعار سندات الحكومة البريطانية ، وكسب آل روتشيلد الملايين .

هذا وقد خلت أوروبا من أى جهاز مخبرات منظم لمدة نصف قرن بعد انكسار نابليون ونفيه ، اللهم إلا من آل روتشيلد ، الذين يحصلون على المعلومات قبل أن تحصل عليها الحكومات ، وما زالوا يهتمون بها حتى اليوم لأغراض اقتصادية على الأقل ، ولاشك أنهم استفادوا من شبكات بنوك المعلومات الآلية .

★ ويليهيلم ستير وكلاب صيد بسمارك



الأمير فون بسمارك

في عام ١٨٤٨ تعرض ملك بروسيا «فريدريك ويليهيلم» إلى سخرية جمع من جمهور الغاضبين في برلين . كانوا في حالة من هياج خطير . وفجأة اندفع رجل من الزحام نحو الملك صائحا : «الموت للطاغية» ولما وصل إلى الملك المذعور ، قال له في صوت هامس : «لا تخف يا صاحب الجلالة أنا من رجال البوليس . رجالي منبثون في الزحام . إنهم حريصون على ألا يمسك سوء» . ثم صاح الرجل بتهديدات أعلى ، ودفع الملك بمنكبيه إلى بوابة تخرجه من الشارع . وظل يدفع الملك ، ثم أحكم إغلاق البوابة . ولما أبعدته بمنجاة من الجمهور ، قدم نفسه له ، وكان اسمه «ويليهيلم ستير» .

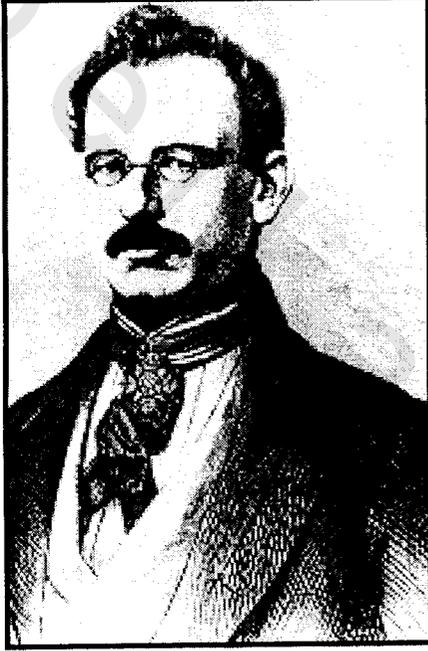
كان «ستير» محاميا شابا طموحا ، يعمل في نفس الوقت مخبرا سريا للشرطة . وأعرب الملك له عن امتنانه لحمايته من الجمهور الغاضب ، وعبر عن امتنانه هذا بعد عامين بتعيينه مفوضا للشرطة ، ومن هنا بدأت رحلة «ستير» الطويلة كرئيس للمخابرات ، وتوالى أعظم إنجازاته في الستينات من القرن التاسع عشر . في هذه الفترة ساعد «بسمارك» رئيس وزراء بروسيا فكسب حربين هامتين : الأولى ضد النمسا ، والثانية ضد فرنسا . كانت مهمة «ستير» هي معرفة مدى قوة الأعداء واستعدادهم للقتال . لم يكن من عادته أن يكتفى بالجلوس إلى مكتبه وإلقاء الأوامر على جواسيسه . كان «كلب الصيد» الغامض يحب الاشتراك في عمليات التجسس بنفسه .

قبل حرب النمسا - على سبيل المثال - طاف بنفسه في مسارح المعارك المتوقعة ، ذهب متنكرا في شخصية بائع متجول ، ومعه حمل عربية من التماثيل الرخيصة الدينية ، وكان يبيع سرا أشياء داعرة يكسب بها صداقة جنود النمسا والفلاحين الشبان المنحلين الذين يقابلهم ، وتعجبهم صور الفجور والفسق .

وقبل حرب فرنسا ، طاف «ستير» بأقاليم العدو ، لكنه في هذه المرة أرسل آلاف

الجواسيس . فبحثوا عن مواقع مخازن الأسلحة ، وتحصينات الدفاع وأرسلوا تقارير دقيقة عن حالة الطرق الفرنسية ، لكي تتمكن القوات البروسية من التحرك بسرعة حينما تغزو فرنسا . سجلوا قوائم وخرائط بمواقع مزارع تربية الماشية ، حتى تعرف القوات من أين تحصل على الطعام . وكانت هذه الدرجة من الاختراق جديدة على عالم الجاسوسية .

بعد انتصار «بروسيا» ، مد «ستبير» عملياته في أنحاء أوروبا ، استخدم في جاسوسيته عمال سكك حديد أجنبية ، وعمال المقاهي والحانات والمطاعم



ويلهيلم ستبير

والفنادق والمصانع . وشحن الشركات الألمانية في الخارج بجواسيسه ، وأصبحت المخابرات الألمانية مصدر الخوف الغالب في أوروبا . اعتنق «ستبير» سياسة «التحريف» . فقد أصر على أن يقتل جواسيسه جواسيس العدو كما يقتل الجنود خصومهم في زمن الحرب . وأعد ملفات بتفاصيل الحياة الشخصية للأثرياء وأصحاب النفوذ ، ليستخدمها في الابتزاز . وتوفي «ستبير» عام ١٨٩٢ ، وازدحمت جنازته بزعماء العالم والنبلاء وقيل إن هذا الحشد العظيم لم يحضر جنازته ليعرب عن احترامه وحزنه ، وإنما ليتأكدوا بأن كلب الصيد العجوز مات فعلا .

ومما يذكر أن «ستبير» استفاد كثيرا من عمله كمحام للمجرمين ، ومن اتصالاته في عالم الإجرام ، حينما أصبح جاسوس ألمانيا الأول . كما استفاد من آلاف الجواسيس الذين نشرهم في الخارج وكلفهم بالاهتمام بكل قصاصة معلومات مهما بدت تافهة ، لأنها قد تكون ذات قيمة عالية .

وفي برلين أقام ما يسمى «بالبيت الأخضر» ، يقوم فيه بتصوير ضحاياه في مواقف مشبوهة تؤثر على مركزهم في الدولة .

★ ألان بينكيرتون ومخابراته الأهلية

ولد «ألان بينكيرتون» فى «جلاسجو» عام ١٨١٩ ، وفى سن مبكر أظهر اهتماما ملحوظا بالإصلاح السياسى وتحسين أحوال الطبقة العاملة ، قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٢ . وفى عام ١٨٥٠ أسس وكالة بينكيرتون الأهلية للمخابرات السرية ، وحاز على شهرة ملحوظة خلال سنوات قليلة .

فى أواخر الخمسينات بات واضحا أن النزاع بين الشمال والجنوب سوف يؤدى إلى حمام دماء . ورجح كفة نشوب الحرب انتخاب «أبراهام لينكولن» رئيسا للجمهورية عام ١٨٦٠ ، بدأ الجنوب فى إرسال جواسيس إلى الشمال فورا لينشروا دعاية ضد الفيدرالية ، والبحث عن أهداف يمكن تخريبها فى المستقبل .

بدأ وجهاء الشمال يدركون أخطار أنشطة الجنوب ، فعملوا على حماية استثماراتهم ، ومنهم : «صمويل فيلتون» من فيلاديلفيا ، وسكك حديد «ويلمنجتون» و «بالتيمور» . وقد استأجرت الشركة الأخيرة بينكيرتون وعددا من أتباعه لحماية الخط الحديدى من الانفصاليين المتآمرين فى «ماريلاند» . ذهب «بينكيرتون» إلى «بالتيمور» فى فبراير ١٨٦١ حيث قيل إن المتآمرين اختاروها مقرا لقيادتهم ، اصطحب معه «تيموثى ويستتر» ، و «هنرى ديفيز» . الأول ذو خبرة عالية ، والثانى من سكان «نيو أورليانز» السابقين ، وقد تعرف بالفعل على عدد من الخصوم .

سرعان ما اكتشف «ديفيز» أن المارشال «كين» ، رئيس شرطة «بالتيمور» متعاطف مع الجنوب ، وأعلن بوضوح أنه لن يفعل شيئا ضد أى محاولة للاعتداء على حياة «أبراهام لنكولن» . حاز «ديفيز» تماما على ثقة المتآمرين ، حتى أنهم سمحوا له بحضور الاجتماع النهائى ، الذى نوقشت فيه خطة اغتيال «لينكولن» . على الرغم من أنه لم يحصل على تفاصيل عن شخصية المرشح لارتكاب الجريمة ، ولا وسيلة الاغتيال ، إلا أن المعلومات جعلت بينكيرتون يؤكد أن فكرة الاعتداء على حياة الرئيس قد أصيبت بالإحباط .

أبلى «بينكيرتون» بلاء حسنا فى تعامله ضد الانفصاليين ، فلما نشبت الحرب ، وأدرك «لينكولن» ضرورة إنشاء جهاز جاسوسية ، طلب الرئيس من «بينكيرتون»

تنظيم الجهاز . وعلى الرغم من أنه كان مخبراً سريراً ممتازاً ، إلا أنه كان يعرف القليل عن كيفية إدارة المخابرات العسكرية . خلال الشهر التي تلت تأسيس جهاز الخدمة السرية البدائي ، تورط الجهاز في كارثة تلو الأخرى ، وبلغت كوارثه الذروة بأسر «ويستر» ثم إعدامه .

تقبل «بينكيرتون» فشله كمدير للمخابرات ، لكن الشمال لم يجد أحداً يحل محله ، إلى أن ظهر «لافاييت بيكر» ، الذي أثبت فيما بعد أنه من ألمع الجواسيس في التاريخ ، وأبرع مديري المخابرات . عاد «بينكيرتون» بعد الحرب إلى أعمال المخابرات الأهلية الخاصة ، وركز جهوده على مكافحة قطاع الطرق ، وعصابة كو - كولوكس - كلان .

★ جرينفيل دودج

تحت إدارة الجنرال «أليسيس جرانت» عملت قوة مخابرات ضخمة ، كانت أنشط مثيلاتها وأكثرها فعالية ، وقد أدت واجبها بكفاءة خلال الحرب الأهلية الأمريكية من عام ١٨٦١-١٨٦٥ ، وأصبحت النموذج الأول لاستخدام الجاسوسية على نطاق واسع في الحرب الحديثة .

تعلم «جرانت» فائدة الجاسوسية في سبتمبر ١٨٦١ ، حينما أخبره عميل أن القوات الكونفدرالية تستعد للزحف نحو مدينة «بادوكا» بولاية «كينتاكي» ، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي على ملتقى نهري «أوهايو» و «تينيسي» تحرك «جرانت» بسرعة لتأمين البلدة ، واحتلها بدون قتال .

بعد سبعة أشهر ، تعلم جرانت درسا مفيدا آخر حينما أخفق جواسيسه في أخباره عن احتشاد ٤٠٠٠٠ كونفدرالي ليشنوا هجوما مفاجئا على خطوطه في «شيلو تشيرش» بولاية «تينيسي» . عزم على ألا يؤخذ على حين غرة مرة أخرى ، فقرر بناء جهاز مخابرات تابع له ، وأسند إدارته إلى البريجادير جنرال «جرينفيل دودج» .

ولد «دودج» في «ماساشوستس» ، وحصل على درجة علمية في العلوم العسكرية والهندسة المدنية في «فيرمونت» و «نيوهامبشاير» ، ثم بدأ حياته العملية المبكرة في خدمة سكك حديد «ميسيسيبي وميزوري» . ولما قامت الحرب انضم إلى الخدمة العسكرية كولونياً لفرقة المشاة الرابعة في «لودا» . وأشرف في نفس

الوقت على قاعدة «رولا» العسكرية بولاية «ميسورى» ، وأنشأ فيها أول سلاح فرسان فى «تينيسى» ، وأسس قوات منظمة تؤدى الكثير من وظائف الجاسوسية ، للعمل غرب المسيسيبي ، وسرعان ما تطورت وأنتجت شبكة مخابرات مدنية ، استخدمت نساء لجمع المعلومات خلال خطوط الاتحاديين وتقديمها لقوات «دودج» .

فى موقعه «بى ريدج» ، أصيبت ثلاث خيول بطلقات نارية وهو يمتطيها ، كما أصيب «دودج» بجرح بالغ ألزمه الفراش شهرا ، ورمى إلى رتبه «بريجادير جنرال» ثم صدر قرار بنقله إلى غرب «تينيسى» حيث تكرر تجربته مع الكشافة والجواسيس فى أكتوبر ١٨٦٢ استدعى «دودج» للعمل فى قيادة «جاكسون» ، وأسندت إليه قيادة فرقة ، وطلب منه أن ينشئ شبكة جاسوسية .

جمع «دودج» قوة مكونة من ١١٧ جاسوساً ، تغطى عملياتهم ما بين «ميفيس» و «موييل» ، وما بين «أتلانتا» و «ريتشموند» . وكان كل جاسوس أو جاسوسة يتقاضى أجرا يتناسب مع صعوبة عملياته وخطورتها ، كما يحصل على مصروفات تتراوح بين ٥٠٠٠ دولار و ١٠٠٠٠ دولار قبل القيام بكل مهمة . وجد «دودج» متعة فى نجاحه العظيم فى دعم حملة «جرانت» على «فيكسبيرج» عام ١٨٦٣ ، والإرشاد عن تجمعات عسكرية فى «ألباما» ومواقع أخرى . وقد عنى «دودج» بحماية جواسيسه عن طريق كتمان أسمائهم وإعطائهم أرقاما سرية .

ثلاث جاسوسات

فى الحرب الأهلية الأمريكية



يلعب النساء عادة فى قصص الجاسوسية دور طعم الفتنة والإغراء، أو التى تفك عقد ألسنة الرجال الكتومين ، فيبوحون صاغرين بأخطر المعلومات والأسرار . والواقع أن للقاعدة شواذاً ، ولا تنطبق على كل من اشتغلن بالجاسوسية ، فمنهن من اعتمدن على سعة الحيلة وقوة العزيمة ، وليس على إثارة الغرائز . من هؤلاء ثلاث جاسوسات نشطن فى الحرب الأهلية الأمريكية . التى دارت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فى أمريكا . هؤلاء النساء هن: بيل بويد ، وفان ليو، وروز جرينهاو .

★ بيل بويد جاسوسة بالصدفة

عاشت «بيل بويد» فى بلدة «مارتنزبيرج» بوادى «شيناندوه» بولاية «فيرجينيا» وهى ابنة فلاح جمع بين الزراعة والتجارة . كانت قد بلغت سن السابعة عشر حينما اندلعت نيران الحرب الأهلية الأمريكية ، وأقحمتها الأقدار بالصدفة فى عالم الجاسوسية ، إذ احتل جنود الشمال بلدتها ، وفوجئت بأحدهم يرفس باب بيتها ، ومن ورائه يتدفق زملاؤه ، الذين استولوا على البيت ، وأهانوا أمها ، فتناولت مسدس أبيها ، وأطلقت الرصاص على أحدهم فأردته قتيلًا . شفح لها شبابها وأنوثتها فنجت من عقاب شديد، وتحوّلت منذ ذلك اليوم إلى جاسوسة كونفدرالية . فى عام ١٨٦١ قامت بأعمال التمريض ونقل الرسائل بين صفوف الاتحاديين ومع تقدم الحرب اتسع نطاق تجسسها بين صفوف الشماليين وخلفها ، وكانت تعود بين الحين والآخر بمعلومات عسكرية هامة ، من بينها أنها اكتشفت أن قوات الشمال كانت تستعد لنسف كوبرى معين ، لقطع طريق إمداد الجنوبيين بمدد قادم لمساعدة الجنرال الجنوبي «ستونول جاكسون» ، وكان على «بيل» أن تعدو عبر الحقول المكشوفة معرضة نفسها لرصاص الجنود ، لتؤدى الرسالة ، وتنقذ الكوبرى .

وفى عملية أخرى زودت الجنرال «جاكسون» بمعلومات مكنته من شن الهجوم المفاجئ الناجح على قلعة «فورت رويال» والاستيلاء عليها . كتب لها الجنرال

بعد احتلال القلعة خطابا شخصيا قال فيه : «أشكرك بالأصالة عن نفسي ، وبالنيابة عن الجيش ، على الخدمة العظيمة . التي قدمتها لبلدك اليوم» .

عُرفت «بيل بويد» بشخصيتها الانبساطية ، وحبها للشهرة ، وحديثها المستمر عن أعمالها البطولية ، ما كان منها حقيقيا وما خالطه الخيال ، خاصة لمندوبي الصحف ، حتى أصبحت شخصية تدور حولها أحاديث المجالس في الولايات الجنوبية . تم القبض عليها ست مرات ، وسجنها الشماليون مرتين ، ونجت من الإعدام شنقا مرتين ، بتدخل شخصي من «إبراهام لنكولن» . وأخيرا ضاقت سلطات الاتحاد بها ذرعا بعد الحرب ، فنفتها إلى كندا .

طافت الجاسوسة الناجحة «بيل بويد» العالم بعد الحرب . وألقت محاضرات عن الجاسوسية من واقع تجاربها الشخصية . وانهاالت عليها الدعوات من مختلف أنحاء العالم ، وكانت تقابل بالتكريم حيثما رحلت . وألقت كتابا عن تاريخ حياتها ومغامراتها ، راج أيما رواج في أمريكا وأوروبا . وتزوجت أخيرا ضابطا بحريا فيدراليا اسمه «سام وايلد هاردينج» استقال من منصبه ، وهجر حياة البحر ، ليستقر مع المرأة التي أحبها .

كتب «جوزيف هيرجشيمر» سيرتها الذاتية في كتاب ألفه فقال : «إن بيل بويد أشهر امرأة اهتمت بنشاط الخدمة السرية خلال الحرب الأهلية الأمريكية» . وأشارت الصحف النزيهة إليها بأنها : «ساحرة شينا ندواه» . وأنها «جان دارك الثائرة» ، و «كليوباترة الأمريكية» ، وغير ذلك من ألقاب الشجاعة والبطولة التي كانت تعجبها وتسعدها وتعتبرها أكثر من أوسمة .

كانت «بيل بويد» تعزو شهرتها إلى الظروف والصدفة . كتبت في كتابها وعنوانه : «بيل بويد في المعسكر والسجن» تقول : « جاءتني الشهرة قدرا بقوة الظروف ، وليس من خلال رغبة مني » .

★ إيزابيث فان ليو

تعتبر أئمن جواسيس الشمال . كانت تعيش في «ريتشمونده» بولاية فيرجينيا قلب الاتحاد الأمريكي . كانت معروفة جيدا بدعمها للشماليين في رغبتهم في إلغاء الرق ، والواقع أنها أعتقت عبدها السود منذ زمن بعيد . كانت تجهر بمناصرتها لقضية الشمال حتى أن الناس ما كانوا يشكون في أنها يمكن أن تعمل شيئا من أجلهم .

وكان أصدقاؤها الشماليون يعتقدون أنها ملتائة قليلا ، فأطلقوا عليها لقب «بيت المخبولة» .

فتش ضباط جيش الجنوب بيتها أكثر من مرة ، لكنهم لم يعثروا أبدا على دليل يدينها بالخيانة ، ولا هم عثروا على الغرفة السرية ، المبنية تحت السقف المنحدر ، ذات المدخل المخفى وراء خزانة بأدراج . من هنا كانت تدبر «بيت المخبولة» جاسوسيتها ، وهنا أيضا كانت تخفى عملاء الشمال والأسرى الهاربين إلى أن يدبروا لهم أمر الفرار . كان للمعلومات التي تجمعها عن طريق مأمون . كانت تكتبها بشفرة اخترعتها بنفسها ، تمررها خلال خمس محطات بالتناوب ، قبل أن تصل إلى قيادة الشماليين .

كان الخبأ الذى تخفى فيه جنود الشمال الهاربين ، غرفة ضيقة مبنية بين الجدران الداخلية والخارجية لبيتها ، مخبئة خلف خزانة أثرية عتيقة ذات أدراج ، لم يعرف أحد شيئا عن هذا الخبأ سوى ابنة أخيها ، التى تسلمت ذات يوم ورأت عمته واقفة أمام فتحة مظلمة فى الجدار ، وفى يدها طبق طعام ، وفى الظلام وقف رجل ملتح يرتدى زيا أزرق قدرا ، ويحملق بنظرات منهكة .

ابتعدت الفتاة بهدوء بدون أن تفتن إليها عمته . ولم تحدث عمته عن هذا الأمر ، لكنها عادت فيما بعد وتحدثت إلى الجندى فحذرها من مغبة رؤية عمته لها فى هذا الموقف ، ونصحها بأن تنسى ما شاهدت ولا تحدث به أحدا . وظلت الغرفة السرية طى الكتمان ، حتى اكتشفها عمال الهدم بعد انتهاء الحرب .

بعد الحرب قال الجنرال «يوليسس جرانت» «لييت المخبولة» : «لقد أرسلت لى أثمن معلومات استلمتها من «ريتشموند» خلال الحرب والغريب أنها أنفقت ثروة على تمويل خدماتها السرية ، ولم ترد لها الحكومة شيئا مما أنفقت وتوفيت فقيرة ، يعيرها أهل فيرجينيا بخيانة قضية الجنوب .

★ روز جرينهاو

تعتبر «روز جرينهاو» الأولى من بين جاسوسات الحرب الأهلية الأمريكية من حيث غزارة المعلومات التى قدمتها . وهى امرأة من الجنوب ، عملت داخل واشنطن عاصمة الشمال بمساعدة عميلين هما : «بيتي دوفال» و «ليلي ماكول» . فى يوليو ١٨٦١ اكتشفت أن قوات الشمال يخططون للزحف نحو

«فيرجينيا» ، وعرفت خط سير الحملة ، فبادرت بإرسال معلوماتها ، ونتيجة لدقة معلوماتها انتصر الجنوبيون في معركة «بول ران» أولى المعارك وأكثرها حساسية .
في عام ١٨٦٤ ، كانت «روز جرينهاو» عائدة من مهمة في إنجلترا ، وفوجئت بسفينة مدفعية تطارد السفينة التي كانت تستقلها ، وجنحت سفينتها ، وغرقت «روز» أثناء محاولة الهرب من السفينة الشمالية .

★ لورد بادن بويل الجاسوس الكشاف

رغم أنه استمد شهرته من كونه مؤسس الحركة الكشفية ، إلا أنه كان جاسوسا ضليعا نشطا ، غريب الأطوار ، مولعا بالأناقة ، مغرما بحل الأحاجي والألغاز ترك الدراسة عام ١٨٧٦ ، والتحق بفرقة فرسان «الهوسار» الثالثة عشر ، وبعد سبع سنوات خدمة في الهند ، انتقلت فرقته إلى «النااتل» في جنوب إفريقيا ، حيث تولى أول مهمة جاسوسية رسمية ، وهي الاستطلاع السري لحدود طولها ٦٠٠ ميل .

بعد أن أمضى عامين في إنجلترا عاد «بادن بويل» إلى جنوب إفريقيا في عام ١٨٨٧ ، وعمل في العام التالي ضابطا لمخابرات فرقة الطيران في حملة «زولو



لورد بادن بويل

لانند» ضد «دينيزولو» . وفي عام ١٨٩٠ عين سكرتيرا عسكريا لعمه حاكم «مالطا» .
وفي عام ١٨٩١ أصبح ضابط مخابرات بريطانيا لحوض البحر الأبيض المتوسط . وجد «بادن بويل» في هذه الوظيفة مجالا كبيرا لحرية العمل واتساع نطاق المبادرة ، مكنته من استغلال مهاراته المسرحية ، لصالح المخابرات البريطانية ، مستخدما قدراته العالية في الملاحظة واقتفاء الأثر والتقصي والتخفي ، لمعرفة تفاصيل التسليح والتحصين . في إحدى المهام تخفى على هيئة عالم حشرات ، فتعلم مسبقا كيف يستخدم شبكة اصطياد الفراشات .

وتلقى ذات يوم أمرا بالتحقق من صحة شائعة عن أن حوضا جافا لبناء السفن يجرى إنشاؤه في «هامبورج». فمثل دور المخبول ، وبلل ملابسه لتأكيد حالته . وسرعان ما اعتقله رجال الشرطة العسكرية الألمان ، لكنهم انخدعوا بمظهره وتمثيله ، وصدقوا أنه مخبول وعاجز عن إدراك أى أسرار ، فأطلقوا سراحه .

في أوائل حرب البوير الثانية ، أسندت إليه مهمة الاستطلاع في جبال «دريكنز بيرج» ، ونجح في عقد صداقات مع عدد من الفلاحين البوير . وخلال الدفاع التالى عن «ميفكيخ» جند عددا من فتيان الكشافة «الزولو» ، ودربهم ، ورفضوا بشم وثبات قبول أى أجر مقابل نجاحهم فى جمع معلومات على جانب كبير من الأهمية . اقتنع «بادن بويل» خلال الحملة بأن أصبح ألمانيا كان المحرك الرئيسى للمقاتلين البوير ، لكنه كان عاجزا عن إقناع السلطات فى لندن بوجهة نظره .

رغم ما عرف عن «بادن بويل» من شذوذ وانحرافات ، إلا أنه كان كتوما شديد الحذر والتستر . خدم بلاده فى ميدان الجاسوسية فى جميع أنحاء أوروبا ، وجنوب إفريقيا ، وتركيا ، والجزائر ، وتونس ، والصحراء الكبرى ، فلا عجب أن كرمته بريطانيا بمنحه لقب لورد . وتوفى «بادن بويل» عام ١٩٤١ .

★ ييفنو أزييف الجاسوس المتسفر

كان «ييفنو أزييف» طالبا روسيا فقيرا يدرس الهندسة ، فى مدرسة الفنون التطبيقية الألمانية فى «كارلسروه» . كان معه طلبة روسيون كثيرون فى المدرسة ، لهم وجهات نظر ثورية . فى ٤ أبريل ١٨٩٣ قرر «أزييف» أن يكسب مزيدا من النقود . فكتب لجهاز الشرطة السرية الروسى المسمى «أوتشرانا» ، عارضا أن يتجسس على رفاقه الثوار ، أجابت عليه الأوتشرانا بقولها : «نحن نعرف كل شئ عن مجموعة كارلسروه ، ولسنا مهتمين جدا بها . لذا فأنت لست ذا قيمة عظيمة لنا ، وعلى أى حال ، نحن مستعدون لأن ندفع لك على شروط ، أولها أن تكشف لنا النقب عن اسمك» وما أسرع ما بدأ عمل «أزييف» كجاسوس شرطة ، بعد ذلك .

خلال الشهور القليلة التالية ، تحوّل «أزييف» الصامت إلى ناثر متحمس ، وتأثر به رفاقه فى «كارلسروه» . بدأ يحضر الاجتماعات الثورية الكبيرة ، وانضم إلى «

اتحاد الثوريين الاجتماعيين « بالخارج الذى شكل مؤخرا تظاهر بأنه رجل أعمال لا أقوال يضيق بالتشدد بالنظريات ، ويتوق للقيام بأعمال إرهابية داخل روسيا .
لم ينخدع الجميع بمظهر «أزيف» . اتهمه أحد الثوار علنا بأنه جاسوس ،
لكن «أزيف» أفنح الآخرين ببراءته . فطردوا الثائر المنحوس من الجماعة .

ومما يذكر أن رأى الأوتشرانا فى «ييفنو» كان مناقضا لما جاء فى الرد على
الطلب الذى قدمه للالتحاق بالجهاز عام ١٨٩٣ ، إذ جاء فيه النص التالى :
«ييفنو أزيف ذكى ماكر . وهو على اتصال وثيق بطلبة شبان يهود يعيشون فى
الخارج ، ولذا يمكن أن يكون ذا فائدة حقيقية لنا كعميل ، ولأنه طماع ويمر
حاليا بحاجة شديدة إلى المال ، يمكن الافتراض بأن حالته ستجعله أكثر حماسا فى
أداء الواجب» .

هذا ما حدث بالفعل . ارتقى تدريجيا على سلم قيادة جماعة الثوار . وضاعفت
له «الأوتشرانا» الأجر ، لأن تقاريره ارتفعت قيمتها أكثر فأكثر ، فقرروا أن يتجسس
على الإرهابيين داخل روسيا ذاتها ، وعاد «أزيف» إلى موسكو ، وخان زعيم
المنظمة الإرهابية . وشى به لدى «الأوتشرانا» . ارتبك الإرهابيون عندما اعتقل
زعيمهم ، فقفز «ييفنو أزيف» - رجل الأفعال لا الأقوال - إلى مقعد الزعامة .

بدأ «أزيف» يوجه فريقا من السفاحين يقترفون جرائم إرهابية ضد سادته ،
بينما يحصل منهم على مبالغ ضخمة من المال . بتدبير «أزيف» لقى وزير الداخلية
الروسى «بليهف» مصرعه ، حيث نسفت عربته بقنبلة عام ١٩٠٤ . وبعد أشهر
قلائل قتل الدوق «سيرجى الأكبر» ، عم القيصر . وأصبح «أزيف» بطلا ثوريا ،
وخبير الاغتيالات الأعلى .

لماذا صبرت عليه «الأوتشرانا» حتى تجاوز الحدود؟ كان عميلهم الأول وربما
اعتقد رؤساء «الأوتشرانا» أنه يحتاج إلى نجاحاته الدموية ليعزز مركزه على قمة
جماعة الثوار ومهما يكن من أمر ، فقد أنهى الثوار نفوذ «أزيف» بعد أن اكتشفوا
علاقته بالأوتشرانا ، ولما أدرك أن خيائته قد افترشت هرب إلى الخارج .

لمن كان ولاء «أزيف» وتعاطفه؟

ظلت الإجابة على هذا السؤال سرا حتى الآن . أجاب رئيسه فى «الأوتشرانا»
فيما بعد بأن «أزيف» كان لا يحمل ولاء ولا تعاطفا إلا للمال . ربما كانت هذه

هي الحقيقة النهائية ، ومع ذلك فإن «أزيف» قابل رفيقا من جماعة الثوار السابقين ، وقال له معاتبا الجماعة : «لو لم تتخلوا عني ، لقتلت القيصر» .

توضح حالة «يفينو أزيف» إلى أي حد تضخم عدد جواسيس «الأوتشرانا» ، ومدى اتساع السلطات التي أتيحت لهم ، حتى لم يعد رؤساء هذا الجهاز قادرين على التحكم فيه ، فأنحرف عن الغاية التي أنشئ من أجلها . وبدلا من استخدامه في التصدي للثوار والحيلولة بينهم وبين خلع القيصر إمبراطور روسيا ، فقد الاتجاه الصحيح ، وضل رؤسائه الطريق ، ولم يعودوا قادرين على التمييز بين المخلصين والمخادعين . وتحولت «الأوتشرانا» إلى سيف مسلط على حكومة روسيا .

★ الأوتشرانا بعث عقيم للأوبريتشينا الروسية

تعتبر «الأوتشرانا» بعثا «للأوبريتشينا» ، أول جهاز بوليسي سياسي روسي ، أسسه «إيفان الرهيب» عام ١٥٦٥ ، وتخلص منه عام ١٥٧٢ ، بعد أن احتدت شوكرته فأصبح خطرا على «إيفان» نفسه . ولدت الأوتشرانا في عهد الإمبراطور «الكراندر الثاني» قيصر روسيا . لكن الجهاز لم تكتمل قدراته إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وفي عام ١٩٠٠ بلغ عدد رجاله ١٠٠٠٠٠٠ عميل يتقاضون أجورهم من ميزانيات مدن روسيا الرئيسية ، وكانت عملياتهم تنتشر في



القيصر نيقولا الثاني عام ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية الأولى

جميع أنحاء روسيا وعواصم كثيرة في الخارج . وعلى الرغم من أن «الأوتشرانا» حقق نتائج جيدة ، إلا أن كثيرا من الثوار استطاعوا اختراقه بسهولة ، كما تمكن البلاشفة من تدميره بدون مجهود يذكر حينما استولوا على السلطة عام ١٩١٧ .

على الرغم من أن جهاز «الأوتشرانا» لم يكن مسئولا مباشرة عن تدبير المذابح ، إلا أنه كان ضد السامية ، ويأخذ عليه اليهود دفع الكثيرين منهم إلى أحضان الماركسيين . في عام ١٨٩١ حصل ضابط أوتشراني على جائزة مقدارها ١٠٠٠٠

روبييل لتفوقه فى عمليات التحريض ضد اليهود بتوزيع النشرات .

فى عهد الإمبراطور نيكولاس الثانى ، بلغ عدد الثوريين المهاجرين الذين يستعدون للإطاحة بالقيصر ٥٠٠٠ رجل ، واتخذت وكالة الأوتشرانا الخارجية من مبنى السفارة الروسية فى «باريس» مقراً لها ، حيث كانت العاصمة الفرنسية مركزاً لتجمع المهاجرين السياسيين عام ١٨٨٢ ، تولى رئاستها «بايوتو راتشكوفسكى» ، وهو أحد سجناء الأوتشرانا ، خير بين النفى إلى «سيبيريا» أو العمل فى الأوتشرانا ، وسرعان ما انتعشت عملياتها ، استغل المراقبين الخارجيين من البوابين ، والخدم ، والباعة الجائلين ، خدم المطاعم والفنادق ، واستعان بالعملاء الداخلين من رجال البوليس السرى ، والعملاء المزدوجين ، فى جمع ثروة من المعلومات ، لم يتم تقييم معظمها حتى الآن .

وتكونت وكالات أجنبية أصغر فى لندن ، وبرلين ، وروما ، وجدت تشجيعاً بعد أن فجرت طوفانا من الفوضى ، وطالبت بموت «كارنوت» رئيس فرنسا عام ١٨٩٤ ، و «أنوينو كانوفاس ديلكاستيلو» رئيس وزراء أسبانيا عام ١٨٩٧ ، والإمبراطورة «إليزابيث» ملكة النمسا والمجر عام ١٨٩٨ ، والملك «أمبيرتو» فى إيطاليا عام ١٩٠٠ . لم يقتصر نشاط الوكالة الأجنبية على جمع المعلومات ، ولكنها مارست مجموعة مختلفة من الأنشطة التى تؤثر على الحكومات الأجنبية والرأى العام . والتصرفات الخاصة ، بما فى ذلك أعمال العنف .

أسهمت الأوتشرانا أعظم إسهاماتها فى سياسة القيصريّة الخارجية فى ميدان «إشارات الخبايا» . اتخذت لمحاكم التفتيش مقاراً فى مكاتب البريد . فى «سان ستراسبورج» ، وموسكو ، ووارسو ، وأوديسا ، وكييف ، وخاركوف ، وريجا ، وفيلنا ، وتومسك ، وتفليس ، لحصر ومراقبة البريد الصادر والوارد ، من وإلى الأشخاص الموالين أو المعارضين . وكانت الرسائل الشفريّة ، ترسل إلى «إيثان زايبين» لحلها .

كانت الرسائل الدبلوماسية المرسلّة بالتلغراف الكهربائى توقف روتينياً . تولى «الكزاندي سافنسكى» محكمة تفتيش وزارة الخارجية من عام ١٩٠١ إلى عام ١٩١٠ ، استخدم خلال تلك الفترة مختلف الوسائل للحصول على شفرات السفارات ، بما فى ذلك الشراء والسرقة .

استمر نشاط الأوتشرانا الروسى بشكل روتينى حتى اشتعل فتيل الحرب العالمية الأولى . وما يدعو إلى السخرية أن الأوتشرانا عجزت عن حل شفرة ألمانية جديدة ظهرت عام ١٩١٢ . وتم توظيف عدد من قراء الشفرة عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ بواسطة البولشفيك ، لكنهم لم يلبثوا أن أحاطوا بهم ، وأعدموا معظمهم .

★ ألفريد ريدل وكرة الأوبرا



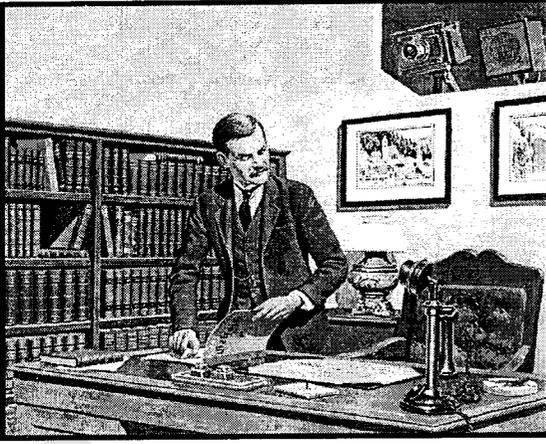
ألفريد ريدل

كان جهاز الخدم السرى النمساوى من أفضل أجهزة المخابرات فى العالم - تم تحديثه بواسطة «ألفريد ريدل» . الذى ترأس الجهاز من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩١١ ، فأدخل عليه وسائل جديدة كثيرة ، وكوفى على إنجازاته بمنصب جديد فى الجيش ، وشغل مكانه رجل كفاء آخر اسمه «رونج» قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى بقليل .

كان «رونج» رجلا ضليعا متمكنا من عمله . حينما زادت احتمالات وقوع الحرب فى أوروبا ، بدأ يطبق بحزم نظام مراقبة البريد . وفى مارس ١٩١٣ اكتشف خطابين معنونين إلى مكتب بريد فى «فيينا» بالاسم الشفرى : «كرة الأوبرا - ١٣» . اتضح أنهما مرسلان من بلدة قرب الحدود الروسية ، مما جعلهم أكثر شكا لأن روسيا كانت عدوة النمسا . ولما فضت الرقابة الرسائل ، وجدوا فيهما ١٤٠٠٠ كروز ، أى ما يعادل ٩٠٠ جنيه إسترلينى ، فثار سؤال حول ما إذا كان المال أجر جاسوس .

وُضع جرس سرى فى مكتب البريد . وريض رجلا شرطة سرية فى مركز الشرطة الملاصق «لكرة الأوبرا» ، لالتقاط الرسائل .

مرت الأسابيع ولم يحضر أحد ، فأصاب الملل رجلى الشرطة السريين . وفى ١٤ مايو ، دخل رجل مكتب البريد ، وطلب الرسائل . لم يكن المخبران موجودين . كان أحدهما قد ذهب إلى دورة المياه ، وكان الآخر يغسل يديه . دق رجل البريد الجرس ، وحاول تأخير المشتبه فى أمره ، لكن الشرطيين لم يصلوا إلا بعد أن انصرف الرجل فى سيارة أجرة . بعد استلام الرسائل .



مكتب ريدل وأدوات الترجيم

ارتاع الشرطيان ، لكنهما انتظرا عودة السائق ، وعلما منه أن الرجل نزل في مقهى ، فاسرعا بالذهاب إليه ، فإذا به قد اختفى ، استقل سيارة أجرة أخرى متجها إلى فندق . ومرة أخرى أسرعوا بملاحقته ، وهما لا يعرفان ملامح الرجل وهيئته ، إلا أنهما عثرا على غمد خنجر في أرضية إحدى السيارتين اللتين استأجرهما .

فكرا في حيلة : طلبا من بواب الفندق أن يسأل كل نزيل جديد ما إذا كان قد فقد غمد سكينه ، ثم انتظرا في صالة الاستقبال ، وتظاهرا بقراءة الصحف . شاهدا رجلا في منتصف العمر يهبط الدرج . عرض عليه البواب الغمد ، فأمن على أنه صاحبه وأخذه . وهكذا أوقع المخبران بالفريسة ، ولشد ما كانت دهشتهما ، لأنهما تعرفا على الرجل من أول وهلة .. إنه الكولونيل «الفريد ريدل» ، الرئيس السابق للمخابرات النمساوية .

ترى هل كان الرئيس السابق لمخابرات النمسا يلعب دور الجاسوس المزدوج ؟ .. اتصل أحد المخبرين بالرئيس الجديد ، بينما اقتفى الآخر أثر «ريدل» كظله خلال شوارع «فيينا» ولا بد أن «ريدل» شعر بأن هناك من يتبعه ، وأن المباراة قد انقضت أمدها ، فعاد أدراجه إلى الفندق ، وحضر إلى الفندق في تلك الليلة أربعة ضباط للقبض عليه .

قال لهم : «أعرف سبب مجيئكم» واستأذنتهم في كتابة كلمات قليلة بعد أن يخلوا له الغرفة وقبل أن يغلقوا باب الغرفة وراءهم استعار مسدس أحد الضباط ، وقال لهم إنهم سوف يجدون كل ما يريدون معرفته عن نشاطه الجاسوسي في بيته بمدينة «بواغ» .

كتب «ألفريد ريدل» كلمة وداع ، وضغط على زناد المسدس بعد أن صوبه إلى رأسه ومات منتحرا . نصت رسالة الوداع على ما يأتي : «قضى على الطيش والنزق . أنا أدفع حياتي ثمنا لذنوبي . الساعة الآن الواحدة والربع ، وسوف أموت الآن . أرجو ألا تسمحوا بتشريح جثتي . صلوا من أجلي ألفريد» .

لم تنجب النمسا على مدى تاريخها جاسوسا عبقريا مثل «ريدل» ، إلا أنه كان مولعا بالشهوات مغرما بالملذات ، مما أغرقه في الديون ، فلما عرض عليه الروس مالا مقابل أسرار النمسا ، وافق ، وظل يزودهم بمعلومات حيوية لمدة عشر سنوات . كرئيس للخدمة السرية ، استخدم وسائل جديدة كثيرة ، فكان يستقبل المشكوك في أمرهم داخل غرفة مملوءة بأجهزة وأدوات لتجريم ضحاياه ، منها :

١ - صندوق سجائر مغلف عادة توضح البصمات .

٢ - جهاز لتسجيل صوت المشتبه فيه على أسطوانة حاكي ، حيث لم تكن أجهزة التسجيل الإلكترونية قد ظهرت بعد .

٣ - آلة تصوير مخفية .

٤ - ملف أوراق معنون بكلمة «سرى» ، مكسو بمادة توضح البصمات . وكان «ريدل» يترك الملف وصندوق السجائر على مكتبه ، ويغادر الغرفة ، وقد يعجز الزائر عن مقاومة رغبته في الاطلاع على الأسرار ، مما يكشف لرئيس المخابرات مدى جدارته بالثقة .

ويذكر أن أخطر خيانات «ريدل» لبلاده وأشهرها ، أنه أعطى الروس نسخة من خطة النمسا للهجوم على الصرب ، وكان الروس أصدقاء الصرب وحلفاءهم ، فزودهم بالخطة . واندلعت نيران الحرب بسرعة ، ولم يكن لدى النمسا وقت لتعديل الخطة ، فهاجموا «صربيا» ، وقرأ العالم كله عن النصر المؤزر للصرب ، ولم يعرف أحد آنذاك أن خيانة «ريدل» هي سر انتصار الصرب . وقدر الخبراء العسكريون أن خيانة «ريدل» كلفت النمسا نصف مليون مقاتل بين قتيل وجريح .